قال الله تبارك وتعالى

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ
أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8)
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُواْ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (14) ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (15)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا-.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

انتهينا في درس فجر اليوم عند قول ربنا جل وعلا {**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**}البقرة٥، في تفسير هذه السورة، أنهينا الكلام على سورة الفاتحة، وشرعنا في الكلام على سورة البقرة، وانتهى بنا الكلام عند قوله تبارك وتعالى {**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**}البقرة٤-٥.

قال جلّ وعلا بعدَ ذلك {**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**}، قلنا هذه السورة في بدايتها ذكر الله جل وعلا أربع آيات، في أهل الإيمان، وذكر بعدها آيتين في حق أهل الكفر، ثم تلا ذلك بثلاث عشرة آية، في حال أهل النفاق، فالآيات الأربع الأُول في حق أهل الإيمان سبقتْ.

ثم ذكر جلّ وعلا أهل الكفر فقال {**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**} بمعنى ستَروا وغطّوا الحق، كفرَ بمعنى سترَ في اللغة، فمعنى {**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**} أي غطوا الحق وستروه، {**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ**} أي يستوي ذلك في حالهم، يستوي إنذارك لهم أو عدم إنذارك، سواء أنذرتهم، وسواء لم تنذرهم، في كلا الحالين لا يؤمنون، لأنه سبق في علم الله جلّ وعلا أنهم كفرة وأنهم يموتون على الكفر، كأبي جهل وأبي لهب، وغير هؤلاء، فالمراد هؤلاء الذين غطوا وستروا الحق بعدما جاءهم وقد كتب الله عليهم أنهم يموتون على الكفر، سواء أنذرتهم وبينت لهم أو لم تنذرهم، فالأمر على السواء، لأنه سبق في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

كما في قوله جل وعلا {**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**}البقرة١٤٥، وكما في قوله عز وجل {**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**}يونس٩٦-٩٧، ذلك لأنه سبق في علم الله سبحانه وتعالى، أنهم أهل كفر، وذلك لمّا علم جل وعلا من عنادهم، وعتوهم وكفرهم، وردهم للحق، وأنهم لا يؤمنون به ولا يتبعونه.

فقوله {**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**} أي كفروا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وكفروا أيضا بما جاءت به الرسل الذين كانوا من قبل، فهؤلاء يستوي إنذارهم وعدم إنذارهم، لأنه سبق أن كتب الله عز وجل عليهم عدم الإيمان، فلا يكونون مؤمنين.

قال {**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**}، ختم بمعنى طبع، الختم هو الطبع، ذلك بأن الشيطان استحوذ عليهم، ختم الله وطبع عليهم لاستحواذ الشيطان عليهم،

فأطاعوا الشيطان فدلهم على طريق الكفر، فختم الله عز وجل على قلوبهم وعلى أسماعهم، فهم لا يسمعون، وهم لا يفقهون.

قال {**وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**} فالختم على القلب والسمع، والبصر عليه غشاوة، كما قال سبحانه وتعالى {**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً**}الجاثية٢٣، فالغشاوة على البصر، والطبع أو الختم إنما يكون على القلب والسمع.

وقال بعض أهل العلم (**الطبع هو تثبيت الذنوب في القلب**) {**طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**}محمد١٦، أي ثبتت الذنوب في قلوبهم وحفّتهم من كل النواحي حتى لا تلتقي عليهم، وقال بعض أهل العلم (**الرّان أيسر من الطبع، والطبع أيس من الإقفال، والإقفال أشد ما يكون عليه القلب قساوة**) وكل هذا ذكره الله جل وعلا في كتابه، قال سبحانه {**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**}المطففين١٤، فالران أخف من الطبع، هذا الرّان إنما يأتي بعد أن يُنكت في القلب النكتة السوداء من جراء الذنوب، قال النبي صلى الله عليه وسلم ( **تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا**) أي كعود الحصير، واحدة أمام الأخرى، وفي رواية (**عَودا عَودا**) أي واحدة تعود تلو الأخرى، ومثلها النبي صلى الله عليه وسلم بأمواج البحر، كما جاء في حديث حذيفة، لما سأله عمر رضي الله عنه عن حديث الفتن، فقال (**فتنةُ الرجلِ في أهلِهِ ومالِهِ وولدِهِ وجارِهِ، تكفِّرُها الصلاةُ والصومُ والصدقةُ والأمرُ والنهيُ، قال : ليس هذا أريد، ولكنِ الفتنةُ التي تموجُ كما يموجُ البحرُ**) أمواج البحر تأتي متلاطمة متضاربة في كل الجهات، الواحدة تلو الأخرى.

قال صلى الله عليه وسلم ( **إنَّ المؤمنَ إذا أذنَبَ ذنبًا كانت نُكتةٌ سَوداءُ في قلبِهِ فإن تابَ ونزعَ واستغفرَ صُقِلَ منها**)، فإن تاب ورجع صقل، أي عاد أبيض كما كان، وإلا ففيه نكتة سوداء، ثم تعرض فتن أخرى ... وهكذا، فمن تاب ورجع واستغفر صقل قلبه وصار أبيض، قال عليه الصلاة والسلام (**حتَّى تصيرَ علَى قلبَينِ علَى أبيضَ مِثلِ الصَّفا**) ليس فيه شيء من الذنوب فهو يأتي بالمعروف ويعمل به، وينكر المنكر وينهى عنه ويرده، (**والآخرُ أسوَدُ مُرباَدًّا**) أي تام السواد، غلب عليه السواد (**كالكوزِ مُجَخِّيًا**) أي مثل الكأس المقلوب، أو الكأس المملوء ماء لا يقبل شيئا، قال صلى الله عليه وسلم (**كالكوزِ مُجَخِّيًا لا يعرِفُ معروفًا ولا ينكرُ مُنكرًا إلَّا ما أُشرِبَ مِن هواهُ**)[1]، هذا هو أوّل ما يغطي القلب وهو الران، من جراء تكاثر الذنوب وعدم التوبة والاستغفار.

[1] [نحوه رواه الشيخان]

والران كالغلاف يغلّف القلب، فلا يصير يقبل معروفا ولا منكرا إلا ماكان تابعا لهواه، الشيء الذي يعجبه، ويتآلف مع الهوى يقبله، والذي يخالف الهوى يرده، فلربما يوافق مما يحب هواه ما هو من الشرع! معروفا أو منكرا، لكن ليس من باب أنه من الشرع، ولكن من باب أنه وافق الهوى.

وبعد الران الطبع، وأعلى درجات القساوة الإقفال، قال جل وعلا {**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**}محمد٢٤، ولهذا فالإقفال كما قال بعض العلماء: هو أشد المراتب عياذا بالله تعالى.

فقوله عز وجل {**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**} ذكر أنه تبارك وتعالى من الصفات الثابتة له، أنه يختم ويطبع على قلوب الكافرين، وذلك مجازاة لكفرهم، ولا يختم ولا يطبع على من شرح صدره للإسلام، فمن يشرح صدره للإسلام يهده لله تبارك وتعالى، قال تعالى {**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ**} في قراءة {**يَصَّاعَدُ**}، {**فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**}الأنعام١٢٥، فالذي يشرح صدره للإسلام يهديه الله تعالى.

أما من يعاند، ويجعل على قلبه شيئا، ويردّ الحق، فالجزاء من جنس العمل، كما قال عز وجل في الآية الأخرى {**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**}الصف٥، { **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ**}الأنفال٣٠، وكما قال عز وجل { **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**}البقرة٩، {**قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**}البقرة١٤-١٥، {**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**}التوبة٦٧، فالجزاء من جنس العمل كما قال العلماء.

ومن حيث القراءة فالأفضل والأصوب أن يوقف على قوله {**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِم**} هذا الوقف التام، ثم {**وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**} لأن هذه الآية فُسّرت بالآية الأخرى كما ذكرت، {**وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً**}الجاثية٢٣، وفي الآية الأخرى قال {**فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ**}الشورى٢٤.

قال {**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**} أي بالغ العظمة، فهذا مصير أهل الكفر، فبعد أن ذكر وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثنّى بذكر وصف أهل الكفر بهاتين الآيتين، ثم توسع الله جل وعلا في ذكر أوصاف المنافقين، لأن أمرهم أخطر، لأنهم يبطنون الكفر، ويظهرون الإيمان، ولهذا فهم في فعالهم مخادعون، والمخادع لا يلتفت ولا ينتبه إلى حيله، ولهذا احتيج إلى أن يوسّع في ذكر الكلام عليهم والإطناب في ذكر صفاتهم المتعددة، كما أكثر من ذكرهم في سور أخرى ومنها سورة براءة، وسورة

براءة ما زال ربنا تعالى يقول لها {**ومنهم .. ومنهم .. ومنهم..**} تذكيرا بأوصافهم، وأيضا ما جاء في سورة المنافقين كذلك.

فأطال الكلام هاهنا من باب بيان أوصافهم وذكرها فقال عز وجل مستفتحا ذلك {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ**} وفي قراءة {**يُخَادعُون**}، {**إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**}، حقيقة النفاق أن تُظهر خلاف ما تُبطن، وهذا النفاق منه:

١= النفاق الأكبر المخرج من الملة وهو النفاق الاعتقادي، وصاحبه مخلّد في نار جهنم، بل هو في الدرك الأسفل من النار كما قال جلّ وعلا {**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**}النساء١٤٥.

٢= والنفاق الثاني وهو النفاق الأصغر أو النفاق العملي، وهو من أكبر الذنوب، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم (**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فهو مُنافِقٌ مَنْ إذا حدَّثَ كَذَبَ ، و إذا وعَدَ أخْلفَ ، وإذا ائْتُمن خانَ**)[1] هذا حديث أبي هريرة، وجاء في رواية أخرى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (**أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا . ومن كانت فيه خلةٌ منهن كانت فيه خلةٌ من نفاقٍ. حتى يدعَها**) ذكر هذه الثلاثة ثم زاد الرابعة (**وإذا خاصم فجر**)[2]، أي أنه إذا اختلف وتنازع وتخاصم مع غيره فجرَ، فقال الكلام البذي، الفاجر، والفاحش، والكلام الذي هو منهي عنه، هذا من النفاق العملي وهو من أكبر الذنوب.

فالمنافق حقيقته يخالف قوله فعله، ويخالف فعله قوله، يخالف سره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه، هذه هي حقيقة النفاق.

وآيات النفاق أول ما نزلت بالمدينة، لأن المؤمنين في مكة كانوا في ضعف، وكان للكفار عليهم قوة، وصولة وجولة، فلم يكن أهل الكفر يحتاجون إلى المراوغة والمخادعة، لأنهم كانوا يظهرون كفرهم، بل كانوا يحملون ضعاف المؤمنين على الكفر بالقوة، ويحاولون أن يردوهم عن الإيمان إلى الكفر {**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**}البقرة١٠٩، وهذا حال كلّ منحرف، كافرا كان أو عاصيا، إذا رأى غيره قد استقام على دين الله فإنه يحسده على ذلك، فيريد أن يرده إلى الانحراف، وإلى الضلال والمتاهة.

[1] [صحيح الجامع ٣٠٤٣: صحيح]
[2] [رواه الشيخان]

ولما هاجر المؤمنون إلى المدينة مع النبي صلى الله عليه وسلم استقر الدين، وقد كان بعض من الأنصار ممن واعد النبي صلى الله عليه وسلم على نصرته، ومنهم أقوام من الأوس والخزرج، لكن كانت المدينة تعج بالأوس والخزرج، وكان بالمدينة يهود بنو النضير، وبنو قريضة، وبنو قينقاع وكانت القوة لهم، والغلبة لهم، ولهذا لم يؤمن أحد من هؤلاء.

إلا ماكان من عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأرضاه، فهو من اليهود وآمن، لأنه رأى حقيقة وصحة هذا الدين، وقصة إسلامه عجيبة، يقول: أوّل ما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة خرجت لأنظر إليه، قال: فلما رأيته علمت أن وجهه ليس وجه كذاب، فسمعته يقول **(يا أيها الناس أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام)**، يعني وجهه وجه خير، أمارات الخير على وجهه عليه الصلاة والسلام، ودعوته إلى معالي الأخلاق، عبادة الله، الإحسان إلى النفس، وإلى الغير، حمل النفس على الخير مع نفسها، ومع الناس ومع ربها أن تعبد الله **(وصلوا بالليل والناس نيام)**، **(وإفشاء السلام)** الخير مع الناس ، **(وأطعموا الطعام)** الإحسان القولي والعملي، دين هذه أخلاقه، وهذا أول ما يدعو إليه النبي الذي جاء بهذا الدين يدعو إلى عبادة الله جل وعلا، وإلى حسن الخلق، هذا مما يدل على أحقية هذا الدين، ولهذا أسلم رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

أتى النبيَ صلى الله عليه وسلم وقال **(أشهد ألّا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله)** صلى الله عليه وسلم، وأخبرَ النبي صلى الله عليه وسلم أن اسمه عبد الله بن سلام، وهو من كبار اليهود، من كبار أحبارهم، وساداتهم وأشرافهم، وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم بأوصافه موجود في التوراة، لأنه ما من كتاب إلا وهو يشير إلى نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، بل إن الله جلّ وعلا أخذ الميثاق على كل نبي {**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ**} هو محمد صلى الله عليه وسلم {**مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**}آل عمران٨١، ما من نبي إلا أخذ الله عليه العهد لو أنني أرسلت في عهدك وفي زمنك محمدا صلى الله عليه وسلم، فيلزمك الإيمان به واتباعه، ففي الكتب إشارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال جل وعلا { **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**}البقرة١٤٦، فقال عبد الله بن سلام: والله إني لأعرفه أكثر من معرفتي لابني، لأنني أخرج وما أدري الذي يقع في بيتي، أما النبي صلى الله عليه وسلم فبأوصافه موجود فيما بقي من التوراة التي لم تحرّف، وإلا فالآن كتاب محرف كما هو معلوم، فلما أخبره بذلك قال: ادعُ يهود واسأل، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم اليهود، فلما جاؤوا قالوا: ما تعدون عبد الله بن سلام فيكم؟ قال: هو سيدنا

وابن سيدنا، ومن خيّرنا وابن خيّرنا، قال: فما تقولون إن قلتُ لكم إنه قد أسلم واتبعني، قالوا: معاذ الله أن يفعل عبد الله بن سلام مثل هذا الفعل، فخرج عبد الله بن سلام من الخيمة وقال **(أشهد ألّا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله)**، فقال اليهود فورا -وقبل ذلك قالوا: سيدنا وابن سيدنا، ومن خيّرنا وابن خيّرنا- شرنا وابن شرّنا، وهو أفجرنا وابن أفجرنا، يعني انقلبوا على فورهم[1]، وهذا فعلهم وصنيعهم عياذا بالله، فكانت الغلبة لهؤلاء وكانت القوة لمن بقي على كفرهم من اليهود من الأوس والخزرج أيضا.

ولكن بعد غزوة بدر التي انتصر فيها الإسلام، وظهرت قوة المسلمين، وشوكة المسلمين، بدأ هؤلاء يرون أن الغلبة للإسلام، فقالوا: ما لنا من بد من أن نظهر الإسلام، لكن في حقيقتهم في باطنهم، هم على الكفر عياذا بالله، ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان رأسا في المدينة وهو من الخزرج، وهذا كان سيجعله الخزرج والأوس رأسا عليهم، ولكن قبل أن يترأس جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالخير العظيم، فصار النبي صلى الله عليه وسلم إليه المرجع، فرأى عبد الله بن أبي بن سلول أنه فاته خير كثير بمقدم النبي صلى الله عليه وسلم، لهذا لم يتبعه، ولكن لما رأى قوة الإسلام ظهرت في غزوة بدر، قال: ما لنا من بد، وما لنا من أن نتوجه إلى ذلك، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر بالله تبارك وتعالى.

فقوله تعالى {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا**} المراد بهم المنافقون من الأوس والخزرج، ومن كان على أمرهم، وعلى شاكلتهم وطريقهم، {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**} الحقيقة أنهم لا يؤمنون وإنما يقولون ذلك قولا، وأما في حقيقة الأمر فهم باقون على كفرهم عياذا بالله.

{**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ**} في قراءة {**يُخادعُونَ**} ، {**إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**}، {**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا**} أي في إظهارهم الطاعة، وبإظهارهم الإيمان، مع أنهم يسرّون الكفر، ويبطنون الكفر، فهم بهذا يخادعون الله والذين آمنوا، ولكن هذا في الظاهر، هم يظهر لهم أنهم يخدعون الله والذين آمنوا، لكن الحقيقة أنهم يخدعون أنفسهم، فهم يظهر لهم أنهم قد خادعوا الله تبارك وتعالى، وخادعوا أهل الإيمان، ويظهر لهم أن ذلك نافعهم عند الله عز وجل، وأن هذا الخداع يروج على الله وعلى المؤمنين، ولكن الأمر على خلاف ذلك كما قال جل وعلا في الآية الأخرى {**يَوْمَ**

[1] [انظر قصة إسلام عبد الله بن سلام في صحيح البخاري ٣٩١١]

يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ}المجادلة١٨.

فهم يظنون أنهم يخادعون، ولكن حقيقة الخداع واقع عليهم لأنهم يظهر لهم أن فعلهم هذا ينفعهم، في حين أنه يضرهم في الدنيا وفي الآخرة، لأنه ظن أنه قد أنجى نفسه، وهو نجى نفسه في الدنيا فقط، من أن يقتل، أو يسبى، أو تصادر أمواله ونحو ذلك، لأنه يفعل به هذا إذا أظهر الكفر، لكن إذا أظهر الإيمان لم يُفعل به هذا، ولكن يوم القيامة يأتي فتظهر كل الأمور على حقيقتها كما قال جل وعلا {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}الطارق٩، وكما قال جل وعلا {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}العاديات١٠، وقال جل وعلا {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}الفرقان٢٣، عملوا ولكن لا ينفع، فيُهدم، وقال جل وعلا {عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ}الغاشية٣ لكن {تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}الغاشية٤، في الظاهر قد عملت ونصبت أي تعبت، ولكن لا ينفعها شيء، فـ{تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}الغاشية٤ عياذا بالله تعالى، وكما قال عز وجل أيضا {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}الكهف١٠٤ فكذلك حال المنافق، يظهر أنه قد خادع الله ورسوله، وخادع المؤمنين بإظهار ما قال بلسانه تقية، بحيث ينجو من السبي والعذاب العاجل، لكنه يوم القيامة يظهر له حقيقة الأمر.

{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} قوله {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} هذا وصف آخر، أي شكّ، وارتياب، وغيظ، وتردد، ونفاق، ورياء، الظلم، .. وكلّ ما دلّ على مثل هذه المعاني كما قال أهل التفسير، {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} فقلبهم أصلا فيه هذا المرض.

{فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} الجزاء من جنس العمل، قال تعالى {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}التوبة١٢٤-١٢٥، فقال الله عز وجل {فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} أي زادهم على مرضهم مرضا، وهذا من باب الجزاء من جنس العمل، {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} وهذا يوم القيامة، فإن الله سبحانه وتعالى قد توعدهم بالعذاب الأليم عياذا بالله تبارك وتعالى.

{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} وفي قراءة {بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ}، قد يقال: ما الحكمة في أن النبي صلى الله عليه وسلم كفّ عن المنافقين، ولم يقتلهم، ولم يقاتلهم، ولم يفعل بهم شيئا، وإنما اكتفى منهم بما هو ظاهر منهم، قال بعض أهل العلم: السبب في

ذلك ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله **(لا يتحدثُ الناسُ أنَّ محمدًا يقتلُ أصحابَه)**[1] فهؤلاء المنافقون أظهروا المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم، فلئن قتل واحدا منهم، فإن العرب يتحدثون بأن محمدا يقتل أصحابه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يجتنب ذلك.

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم يقبل منهم ظاهرهم، لقوله (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى)**[2]، فمن قال شيئا جرت عليه الأحكام ظاهرا، فإن كان يعتقد ما يقوله ويظهر، فينال الثواب يوم القيامة، أما إن كان لا يعتقد ذلك، فتجري عليه أحكام الإسلام في الدنيا ولكن يوم القيامة يظهر على حقيقة حاله، ولهذا قال سبحانه وتعالى في الآية الأخرى في سورة الحديد في حال المنافقين {**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**}الحديد١٤، فإن ذلك يوم القيامة، يتميز المحق من المبطل، كما قال تعالى {**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ**}سبأ٥٤.

وجاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه يخلص من أهوال القيامة كل من كان يزعم أنه يعبد الله سبحانه وتعالى، فيأتي الله جل وعلا بهؤلاء ويقول: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فهل بينكم وبينه علامة؟ فيقولون: نعم، فيكشف الله جل وعلا عن ساقه، فيسجد كل ما كان يسجد طاعة وإخلاصا لله، أما من كان يسجد رياء نفاقا، فهذا يصير ظهره كشيء واحد، كلما أراد أن يسجد انقلب إلى قفاه، عياذا بالله تبارك وتعالى[3]، فهذا حال أهل النفاق.

فالإسلام يحكم على الظاهر، من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، قبل منه ذلك، ولأجل هذا نقل أهل العلم على أن الواجب على القاضي أن يحكم بما يظهر له من الأمارات والأدلة، ولا يحكم بعلمه بل لا بد من أدلة بينة، وأمارات، وقرائن، كمثال -وإن كان هو محل خلاف بين أهل العلم في باب القضاء- فلان من الناس عندك علم أنه سرق، وجيء به وقالوا: فلان سرق كذا وكذا، فهل تحكم عليه أنه سرق لعلمك أنه سارق؟ أو لابد من بينة ودليل على أنه سرق؟ في القضاء يلزمك الدليل، ما الدليل على أنه سرق كذا وكذا؟ لو قال القاضي: أنا حكمت عليه بأنه سارق لأنني أعلم أنه سارق، هذا لا يُقبل منه، لا يكفي أن يحكم بعلمه السابق في أن فلانا فيه كذا وكذا، قد

[1] [رواه الشيخان]
[2] [رواه الشيخان]
[3] [صحيح البخاري ٤٩١٩]

يستحلف به فيسجن، يؤدّب، يعزّر، يضرب، كما قال مالك رحمه الله تعالى، لكن ليس كافيا بأن يحكم على ذلك بهذا العلم فقط بل لابد من دليل وبينة.

ولهذا قال بعض أهل العلم: يستفاد من كون النبي صلى الله عليه وسلم لا يقاتل هؤلاء، أن القاضي لا يقتل بعلمه، أي بأنه يعلم أن فلانا يستحق القتل لكذا وكذا، لكن أين الدليل؟! لا بد من إقامة البرهان، وإن كان كأصل في المسألة يذكره أهل العلم، ولكن ثمة خلاف في الأحكام والفروع الفقهية كما أشار إلى ذلك أهل العلم.

هؤلاء المنافقون كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أعيانا منهم، وهؤلاء عددهم أربعة عشر كما نقل عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه، حيث جاءت تسميتهم ومعرفتهم في غزوة تبوك، وهم الذين همّوا بأن يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، في ليلة ظلماء، فأخبره الوحي فعلم بحالهم، وكفّ عن قتلهم للأسباب التي سبق ذكرها، فهؤلاء علموا بأسمائهم، ومنهم من لم يعلمهم عليه الصلاة والسلام، كما قال تبارك وتعالى {**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**}التوبة١٠٤، وقال جل وعلا {**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا**}الأحزاب٦٠-٦١، وقال جل وعلا {**وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**}محمد٣٠.

فالذين علمهم النبي صلى الله عليه وسلم منهم هؤلاء الأربعة عشر، والآخرون كان لا يعلم بحالهم، ولكن يعلم أن هناك من المنافقين من يوجد كما أشار ربنا عز وجل في هذه الآيات، ومن هؤلاء المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم عليه لما مات، ولهذا قال عمر رضي الله عنه (**لا تصل عليه يا رسول الله فهو رأس المنافقين، قال: يا عمر إني خيّرت فاخترت**)[1]، خيّر في ماذا؟ في قوله جل وعلا {**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ**}، وقال في الحديث الآخر (**لو أعلم أني زدت على السبعين فغفر له لزدت عليها**)[2]، لأن الله تعالى {**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**}التوبة٨٠، ولكن العدد هنا لا مفهوم له، وهنا فائدة أصولية يذكرها أهل العلم ممن لا يرى للعدد مفهوما، استفاد من هذه الآية.

---

[1] [رواه الشيخان]
[2] [ صحيح البخاري ٢ : ١٢١]

فقال صلى الله عليه وسلم (**خيّرت فاخترت**) فصلى عليه، ثم جاء بعد ذلك النهي، قال تبارك وتعالى {**وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**}التوبة٨٤، فجاء النهي فصار لا يصلي على من يُعلم أنه من المنافقين، ولهذا كان حذيفة يعلم بعضهم، فكان عمر رضي الله عنه إذا مات أحدهم، يتتبع حذيفة، يصلي عليه أو لا؟ فإن صلى حذيفة صلى عمر، وإن لم يصل حذيفة اجتنب عمر الصلاة رضي الله عنهما.

قال {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**}البقرة١١-١٢، هؤلاء المنافقون إذا قيل لهم لا تفسدوا، الفساد هو الكفر والمعصية، وقولها والعمل بها، {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ**} أي لا تعصوا في الأرض، لأن معصية الله، وقولها والعمل بها من الإفساد في الأرض، فمن عصى الله أو قال معصية، أو أمر بها فقد أفسد في الأرض، لأن إصلاح الأرض -بل والسماء-إنما يكون بالطاعة، ولهذا قال سبحانه {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**}الروم٤١، {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**} هذا الفساد الذي ظهر بسبب {**أَيْدِي النَّاسِ**} ما قدّمته أيدي الناس، وإنما قدموا أقوالا وأعمالا واعتقادات، ففساد الأرض والسماء مبناه على المعصية من الكفر وما كان دونه من المعاصي، الكفر وسائر الذنوب، هذا سبب فساد الأرض والسماء.

فإصلاح الأرض والسماء يكون بالطاعة، ولهذا لمّا زلزت الأرض على عهد عمر، قال (**والله لئن عادت لأخرجن من بينكم**)[١] لأن هذا النوع من الأضرار إنما سببه فساد الناس، وهذا صريح حديث النبي صلى الله عليه وسلم فإنه ذكر في حديث ابن عمر الذي رواه ابن ماجة وغيره أن كلما أفسد الناس نوعا من الفساد وقع فيما بينهم نوع من الفساد، فقال عليه الصلاة والسلام (**لم تظهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ، حتَّى يُعلِنوا بها إلَّا فشا فيهم الطَّاعونُ والأوجاعُ الَّتي لم تكُنْ مضت في أسلافِهم الَّذين مضَوْا ، ولم ينقُصوا المكيالَ والميزانَ إلَّا أُخِذوا بالسِّنين وشدَّةِ المؤنةِ وجَوْرَ السُّلطانِ عليهم، ولم يمنعوا زكاةَ أموالِهم إلَّا مُنِعوا القَطْرَ من السَّماءِ ، ولولا البهائمُ لم يُمطَروا ، ولم ينقضوا عهدَ اللهِ وعهدَ رسولِه ، إلَّا سلَّط اللهُ عليهم عدوًّا من غيرِهم فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم تحكُمْ أئمَّتُهم بكتابِ اللهِ ، ويتخيَّروا ما أنزل اللهُ ، إلَّا جعل اللهُ بأسَهم بينهم**)[٢].

[١] [روى ذلك ابن أبي شيبة في "المصنف" (٣٥٨/٢)]
[٢] [ السلسلة الصحيحة ١٠٦ قال الألباني: له طرق كلها ضعيفة إلا طريق الحاكم حسن الإسناد فهو العمدة].

نحن نرى الآن الكفرة متسلطون على المسلمين، شرذمة من اليهود تسلطوا ليس على المسلمين بل على العالم كله، لم؟ جاء في الحديث (**ولن يُغلَبَ اثنا عشرَ ألفًا من قلَّةٍ**)[1] الجيش إذا بلغ عدده اثنى عشر ألفا هذا لا يُغلب من قلّة، إذن الغلبة من أسباب أخرى، عددنا يفوق اثنى عشر ألفا، فالسبب هو هذه الأعمال، فتسلط اليهود على المسلمين من أعظم أسبابه لا هو اقتصاد ولا تجارة ولا سياسة، هو الفساد المنتشر بين المسلمين.

ومن الأسباب عدم تحكيم شريعة الله جل وعلا، بكاملها، فصار الناس يتخيرون منها ما يعجبهم، بل بعض الناس لا يفهم حقيقة هذا الدين، بعضهم لما يُنكر عليه منكرا، يقول: أنا حر أفعل ما أشاء، وهذا يدل على أنه لا يفهم، ولا يعي الإسلام، لأن معنى الإسلام، كلمة أسلم بمعنى استسلم وانقاد، خضع، تذلل، تجرد للشيء، تبعَ، انقاد صار مقيدا، فأنت حرّ حقيقة، لكن في دائرة الإسلام، حرّيتك مضبوطة بقواعد الشريعة، بشرع الله جل وعلا، لا يحل لك أن تفعل في نفسك أوفي غيرك شيئا يخالف الشرع.

فبعض الناس يفعل بشعر رأسه ما يشاء، حلقا، وصبغا، وإطالة، ونحو هذا، فإذا قيل له لماذا تفعل هذا؟ وأن هذا غير جائز، يقول: أنا حرّ لم تلزمني بكذا وكذا؟ هذا الإلزام لا ألزمك به أنا، يلزمك به اعتقادك ودينك، ما دمت تقول إنك مسلم.

أعود فأقول: سبب الفساد في الأرض والسماء، هو المعاصي، قال (**إلَّا جعل اللهُ بأسَهم بينهم**) وهذا يوجد في بعض الدول الإسلامية، يوجد اعتداء من بعضهم على بعض، ونحو ذلك، فينبغي للمسلم أن يتفطن لهذا المعنى.

{**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ**} بالكفر والمعصية {**قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**} نحن أهل صلاح وأهل إصلاح وأهل هداية وهدى، وهذا -ترى- يقوله كل صاحب دعوة إلى الباطل، يريد أن يلبّس على الناس.

لمّا قال مؤمن آل فرعون {**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**}**غافر٢٨، ماذا قال فرعون؟** {**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ**

[1] [صحيح ابن ماجة ٢٢٩٧: صحيح من وجه آخر]

**الرَّشَادِ**}غافر٢٨، هو يدعي الربوبية ويقول أنه رب، ثم يقول أريد أن أهديكم وأدعوكم إلى سبيل الرشاد!، كذلك هؤلاء قالوا {**قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**} فهذا هو سبيل هؤلاء.

نقل عن سلمان رضي الله عنه أن أصحاب هذه الصورة وهذا الوصف لم يجئ وقتهم بعد، والمراد أن أصحاب هذا الوصف الذين بلغوا أعلى درجات وصف الفساد، وإلا فبعضهم قد كان موجودا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما أشار إلى ذلك ابن جرير في تفسيره رحمة الله تعالى عليه.

{**قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**} أي نريد الإصلاح، ونحن أهل صلاح وإصلاح {**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**} **(ألا)** حرف تنبيه إشارة إلى أن يتنبه المؤمن بحال هؤلاء وإنما هم أهل الفساد وأهل الشر عياذا بالله، إلا أنهم لا يشعرون بهذا الفساد الذي يفعلونه، وهذا من جهلهم.

{**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ**} أي إذا قيل لهؤلاء المنافقين آمنوا كما آمن الناس، من هم الناس؟ الصحابة، وهذا هو الواجب، أن نؤمن كما آمن الصحابة، وبما آمن به الصحابة، قال جل وعلا -ستأتينا في سورة البقرة- {**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ**}البقرة١٣٧، إذن فالعبرة أن نؤمن بما آمن به الأوائل، فالمرجع إلى هؤلاء الأوائل الذين يسمون بالسّلف، ويسمّون بالصحابة الكرام، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، فلا يُقبل إلا ما كان آمن به أولئك.

{**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ**} الصحابة، وبما آمن به الناس؟ آمنوا بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره والبعث والنشور والموت والجنة والنار، وغير ذلك مما أخبر الله جل وعلا به في كتابه، وأيضا من ذلك طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والتزام أمره وترك النواهي.

{**قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**} يقصدون بذلك الصحابة الكرام أكرمهم الله ورفع قدرهم، ولعن الله جل وعلا هؤلاء المنافقين في قولهم هذا، الذي هو مجرد البهت والزور والباطل.

فالمعنى أن نصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة، والمراد بالسفه هو الجهل، والضعف في الرأي والعقل، وضعف المعرفة بمواطن المصالح والمضار، ولهذا وصف الله النساء والصبية بالسفه، قال تعالى {**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**}النساء٥، فهذا فعل هؤلاء المنافقين.

قال تعالى {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} أي من تمام جهلهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة، وبحالهم في الجهل وذلك، أبلغ في العمى والبعد عن الحق، وعن الهدى.

**{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}** أي أن هؤلاء المنافقين إذا لقوا أهل الإيمان أظهروا الإيمان، وقالوا إنهم من أهل الإيمان، والإسلام، والموالاة، وإظهار الموافقة، لكن إذا خلوا وانصرفوا وذهبوا إلى شياطينهم من الإنس، والجن، قالوا: إنما نحن معكم.

ومثل ذلك لو أصاب أهل الإيمان الخير، والنفع قالوا: إنا معكم، وإذا أصابهم ضر أو غلبة في حرب ونحو ذلك، رجعوا إلى أهل الكفر، قالوا: إنا معكم.

فالمراد بقوله {**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ**} **هذا فعل أهل النفاق**، {**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**} أي إنما نحن نستهزئ بهؤلاء الأقوام ونلعب بهم، ونسخر منهم، أي يسخرون بالصحابة الكرام رضي الله عنهم، أي في قولهم {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ**} فهذا فعل هؤلاء الكفرة.

قال {**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**} قال بعض العلماء: هذا يفعله الله تبارك وتعالى بهم يوم القيامة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى {**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ...**}الحديد١٣-١٤، إلى آخر الآية، قال بعض أهل العلم: هذا من الاستهزاء بهم، طلبوا النور، قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا، فإذا رجعوا ضرب بينهم بسور، فالباطن مما يلي أهل الإيمان فيه النور، والظاهر فيه العذاب -عياذا بالله تبارك وتعالى-

وقال بعض العلماء في قوله {**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**} كقوله عز وجل {**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**}آل عمران٥٤، وقوله {فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ}التوبة٧٩، وقوله جل وعلا {**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**}التوبة٦٧، وما أشبه ذلك مما أخبر الله جل وعلا أنه يجازيهم به، جزاء استهزائهم ويعاقبهم عقوبة الخداع، فأخبر خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم، فخرج مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب به في اللفظ وإن اختلف المعنيان.

قالوا: المراد لو أن أحدا أراد أن يخدعك فعرفت حيلته، وتربصت به، فأفشلت الحيلة التي فعلها، وكنت أنت الغالب، فقلت أردت خداعي فخدعتك، يعني وإن كنت أنت لم تحتل عليه، يعني أصل الخداع لم تفعله أنت، وإنما تفطنت لفعله وظفرت به، فقلت له: أردت خداعي فخدعتك، وإن كان ليس المراد هو المعنى الأول الذي فعله هو، فخداعك بالنسبة له فعل فاضل، لكن فعله بالنسبة لك فعل مشين، فالله جل وعلا يخدع من يريد أن يخدعه {**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**}النساء١٤٢، ويستهزئ بمن يريد أن يستهزئ به، وينسى من ينساه، ويسخر ممن يسخر به، سبحانه وتعالى فهذا هو المراد كما قال بعض العلماء.

وذكر بعض أهل العلم أن هذه الآية فيها صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، ولكن هذه الصفة لا تطلق على الله جل وعلا بإطلاق، وإنما تطلق مقيدة، فالله يستهزئ بمن يستهزئ به، ويسخر ممن يسخر منه، وينسى من ينساه، ويخادع من يخادعه وهكذا، ومن تمام ذلك -أنه يستهزئ بهم- يظهر لهم في الدنيا أنهم ينجون من خداعهم الظاهر بأنهم آمنوا واتبعوا، ولكن إذا جاء يوم القيامة، وجدوا العذاب والنكال عياذا بالله تعالى.

{**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ**} أي يزيدهم ويملي لهم {**فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**} أي في كفرهم وضلالهم ومجاوزتهم الحد، يعمهون أي يترددون، ويزدادون ضلالا على ضلال، فالعمه هو الضلال، وقيل العمه يكون في القلب، والعمى يكون في العين، لكن قد يستعمل العمى أيضا في القلب، كما قال جل وعلا {**وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**}الحج٤٦، فقوله {**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**} أي يزيدهم في كفرهم وضلالهم وانحرافهم، فيزدادون عمى على عمى، أي يزدادون ضلالا على ضلال، ويعلو رجسهم ويزداد ترددهم وحيرتهم وضلالهم، فلا يجدون إلى المخرج سبيلا، لأنه قد طبع على قلوبهم.

قال تعالى {**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**} هذا تتمة الكلام في أوصاف هؤلاء، ولعلنا نتركه لدرس قادم.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.